

الصراع السياسي بين تونس والجزائر خلال حكم حمودة باشا (1782-1814) وملامح التواصل الثقافي بينهما

The political conflict between Tunisia and Algeria during the rule of Hammouda Pasha (1782-1814) and the features of cultural communication between them

طا با. بن أحمد عيسى جمال¹، مكحلي محمد²

¹ جامعة الجيلالي ليايس سيدي بلعباس، (الجزائر)، djamelbenahmedaissa93@gmail.com

² جامعة الجيلالي ليايس سيدي بلعباس، (الجزائر)، m_mekahli@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2021/12/30

تاريخ القبول: 2021/12/15

تاريخ الاستلام: 2021/07/18

ملخص:

تميزت العلاقات بين إياي تونس والجزائر خلال فترة حكم الأسرة الحسينية بتنوع دبلوماسي، حيث تدحرج من مرحلة هدوء وسلم إلى حرب حامية الوطيس إلى خضوع لإحداهما، ولعل فترة حكم الباي حمودة باشا اعتبرت من أهم هذه المراحل والتي نقلت تونس من دولة فتية إلى دولة حديثة لها قوامها، وذلك من خلال استغلال الفرص التي أتاحت له ومحاولة التخلص من خضوع إيلته لسيطرة حكام ودايات الجزائر مما جعله يدخل في حرب معها، لكن هذه الحروب لم تمنع من بقاء التواصل الثقافي والديني بين الإيالاتي، خاصة أن كلا الطرفين اهتموا بالعلم والعلماء وطلبة العلم، إضافة إلى تقريرهم الدائم من رجال الزوايا وأصحاب الطرق الصوفية ومنحهم امتيازات عديدة مما جعلهم يحققوا روابط الاخوة بين شعبيين بعيدين عن رعى الحرب الدائرة بين الإيالاتين.

كلمات مفتاحية: تونس والجزائر، أسرة الحسينية، الباي حمودة باشا، التواصل الثقافي، الطرق الصوفية.

Abstract:

The relations between the Regency of Tunisia and Algeria during the period of the Husseinieh family were characterized by a diplomatic diversity, from a period of calm and peace to hot war, to one of them. The period of the rule of bey Hamouda Pasha was considered to be one of the most important stages of the transition of Tunisia from a young State to a modern State of its own strength by taking advantage of the opportunities offered to him and trying to eliminate his ownership from the control of the rulers of Algeria, which led him to enter into a war with Algeria. But these wars did not prevent the continuation cultural and religious between the regency from remaining, especially since both parties took care of science, scientists and students of science, as well as their constant proximity to the men of the corners and the owners of the Sufi roads and granted them numerous privileges. This caused them to achieve fraternity ties between two peoples far from the war between the two regency.

Key words: Tunisia and Algeria; Husseinieh family; bey Hamouda Pasha; the continuation of cultural; the Sufi roads.

* المؤلف المرسل.

مقدمة:

إن الدراسات العربية اليوم كثيرا ما أصبحت تهتم بالعلاقات الثقافية على غرار العلاقات السياسية وخاصة أن العرب في علاقتهم مع بعضهم البعض كانت تنتقل مظاهر العلاقة من العداوة الكلية الى السلم والهدوء تارة وإلى تذبذب العلاقات تارة أخرى، لكن نحن في هذه الدراسة سنضع إحدى نماذج الايالات العثمانية مع بعضها ونحاول وضع مقارنة بينهما لنستنتج هل أن هذه العلاقة تنتمي لإحدى العلاقات السابقة التي تحدثنا عنها أم أن هناك اختلاف كلي في دراسة العلاقات السياسية والثقافية بين هذين الايالتين والتي هما ايالة تونس والجزائر وذلك خلال الفترة الممتدة من 1782م الى 1814م .

ولقد شكل الحكم الحسيني محطة تاريخية هامة مقارنة بمراحل الحكم السابق في تاريخ تونس الحديث حيث تأسست هذه الأسرة على يد حسين بن علي، وبهذا أصبح أول حكامها الذي تميز بحكم مدة طويلة عرفت فيها تونس علاقات وطيدة مع مختلف دول العالم وكذا دول الجوار، ولعل من أهم هذه العلاقات، علاقة تونس بالجزائر خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر بحيث نجد فسيفساء من العلاقات بينهما، لكن هذه العلاقة مبنية على المصالح المشتركة بالدرجة الأولى وكثيرا ما كان يشتعل فتيل الحرب بين الإيالتين.

إن المتمعن لفترة الحكم الحسيني يجعلنا نقف عند فترة حكم الباي حمودة باشا الحسيني الذي ذاع صيته آنذاك بحيث بدأت فترة حكمه في تونس سنة 1782م، إلا أنه في الواقع كان حاكما قبل هذه السنة لأنه كان يحكم باسم أباه عندما عجز هذا الأخير عن تسيير السلطة، حيث فضل والده أن يتولى ابنه حمودة باشا مقاليد وزمام الحكم مما أكسبته الخبرة الكافية لتؤهله للمرحلة التي تلي وفاة والده، وبهذا كان مطلعا على السياسة الداخلية والخارجية للإيالة، وفهم كيف يمكن مسيطرة ايالة الجزائر باعتبارها الجارة أكثر نفوذا على الحدود الغربية لايالة تونس وذلك تقريبا خلال فترة حكمه الممتدة من 1782م الى 1814م إلا أن ظاهرة هجرة العلماء والمتصوفة بقيت قائمة رغم هذا الصراع، ومن هنا ارتأينا أن نخوض في دراسة التاريخ الثقافي لتونس في علاقته مع الجزائر مقارنة بالتاريخ السياسي الذي جعلنا نتساءل، هل سيقف الصراع السياسي كعائق أمام النشاط العلمي بين الايالتين؟ وهل شخصية الباي حمودة باشا كانت شخصية معرقلة للعلم والعلماء أم أنها فصلت العلم عن السياسة؟ وللعلم أن هذه الفترة عرفت توسعا للطرق

الصوفية التي كانت دوما بمثابة جسر التواصل بين الايالي سابقا، وهل هذا الجسر سيستمر خلال هذه الفترة؟ وإلى أي مدى كان هذا التواصل الثقافي والاشعاع العلمي رابطا بين الايالي ومهدئا للعلاقات السياسية؟

1. التعريف بشخصية حمودة باشا:

لقد عرفت فترة حكم الحسينيون خلال القرن الثامن عشر أهم فترة وهي فترة حكم الباي حمودة باشا الحسيني الذي ذاع صيته في التاريخ الحسيني التونسي، فمن هو هذا الباي؟

1.1. سيرته:

يعتبر حمودة باشا من مواليد الثامن عشر من شهر ربيع الثاني 1137 هـ الموافق ل1759م بالجزائر (مسهل وعبد اللاوي، د.ت.، صفحة 22)، أمه جارية من أعلاج القرج اسمها محبوبة، تزوج بها أبوه في الجزائر (ابن أبي ضياف، 1999، صفحة 11)، ويكنى حمودة باشا بابا محمد، تصدر للرئاسة بحيث وجدت فيه كل مواصفات الجدارة، ولقد اعتنى والده بتربيته وتهذيبه وأهله لإدارة الملك (حسن حسني، د.ت.، صفحة 156)، وعندما أنهى حمودة باشا تعلمه وناهز الثمانية عشر من عمره زوجه أبوه يوم 05 أكتوبر 1776م من بنت الشيخ الامام المفتي أبي عبد الله محمد بن الشيخ الامام المفتي أبي عبد الله الحاج حسين البارودي، وقد أقيمت الولائم والأفراح العظيمة بالبلاد، شارك فيها رجال الدولة والأعيان والقناصل، وقد أنجبت زوجة حمودة باشا عدة أولاد، لكن أحدا منهم لم يعمر، إذ توفوا جميعا وهم صغار السن، وكان لهذا أثر على حياته الشخصية، حتى أنه عند وفاة ابنه الذي بلغ حوالي 8 سنوات انقطع عن مقابلة الناس وامتنع عن الأكل مدة إلا أن أصابته حصى كان أن يموت بسببها. (الامام، د.ت.، صفحة 69)

لقد كان لحمودة باشا قدرة سياسية في تسيير بلاده، حتى أن والده الباي علي باشا عندما كبر في السن أشركه في الحكم وراسل الدولة العثمانية طالبا موافقتها على تقديم ابنه للولاية بعده، فوافقت الدولة العلية برغبته ووافته الخلة والفرمان لذلك (حسن حسني، د.ت.، صفحة 156)، ولقد كانت آنذاك كل الصفات موجودة فيه، يقول ابن أبي ضياف: «هو عماد البيت، بيت القصيد وفريدة السلك المعداد من مفاخر هذا القطر، ثاقب الفكرة، صادق العزم، ثابت الجنان، أبي القيم، وكان غيورا على الوطن، محبا لأهله، عارفا بمنزلهم، متألف لهم، جماعا للمال، بعيدا عن الترف، عظيم المهابة في القلوب...» (مسهل وعبد اللاوي، د.ت.، صفحة 25).

وبعد تولية علي باي ابنه بعام توفي ليبدأ عهد جديد متمثل بحكم الباي حمودة باشا 1782م-1814م الذي يعد من أشهر بايات تونس، وإذا كان حمودة باشا أشهر باياتها وداهية في السياسة، فما هي أهم السياسة التي طبقها داخليا وخارجيا ؟

2.1. مرحلة حكم الباي حمودة باشا (1782م-1814م):

بويح الباي حمودة باشا من طرف أعيان وعلماء ووزراء أبيه على الحكم في 1782م، وكان أول من بايعه هو بن عمه أبو الثناء محمود باي، وبعد أن جلس على الكرسي خاطبهم بقوله: "إني لم أجلس في هذا الموضع بتغلب حربي حتى أحسن لمن أعانني وأستشفي ممن حاربني وقد طلبتموني في حياة أبي، فأطلب منكم أن تكونوا لي كما كنتم لأبي..." (مسهل و عبد اللاوي، د.ت.، صفحة 27).

تميز حكمه بالقوة وصراع القوى الخارجية، إذ اشتعلت الاحداث الساخنة بين 1784م الى 1785م بنشوب حرب ضد البندقية وكان لحمودة باشا دور في مواجهتها من خلال ارغامها على دفع غرامة بسبب تعدي على بضائع تونس، وفي عام 1811م كان لحمودة باشا دور في إلغاء نظام الانكشارية بعد أن طغى في تونس، وقام بتكوين جيش عربي جديد ، يتكون من جيش المخازنية وجيش المزارقة (الجميل، 1997، صفحة 290)، وقبل هذه الفترة حاول أن يعقد السلم مع كافة دول الجوار وخاصة ايالة الجزائر من أجل بناء قوة جيشه التونسي الحديث وفي نفس الوقت يحضر للتخلص من الانكشارية التي عانت تونس من تمرداتها وذلك في أواخر القرن الثامن عشر.

2. الصراع التونسي الجزائري خلال فترة حكم حمودة باشا الحسيني:

لقد تميزت العلاقات التونسية الجزائرية خلال حكم حمودة باشا بتطور كبير حيث عرفت بدايتها السلم الذي يتخلله اضطراب دائم ينتهي عادة بحروب دامية بينهما.

1.2. مرحلة الهدوء السياسي:

إن البحث في المرحلة الأولى من العلاقات التونسية الجزائرية خلال أواخر القرن الثامن عشر كانت تتميز بالسلم وحسن الجوار بالرغم من تخللها لاضطرابات كادت أن تعصف بالسلم الى الحرب، وذلك لأن مشاكلهم الداخلية كانت سببا في عدم دخولهم لمثل هذه الحرب.

لقد عرف باي تونس حمودة باشا مواجهة لحملات البنادقة التي قادتها على بلاده، إضافة الى الوباء الشديد الذي أصاب البلاد في سنتي 1784م و1785م والمشاكل الاقتصادية التي عرفتها تونس (بن خروف، 2017، صفحة 245) والتي انعكست على العلاقات الخارجية لتونس مع الجزائر حيث أصبحت خاضعة خضوعا كليا للجزائر، ومن الأمثلة على ذلك استجابة حمودة باشا في سنة 1784م لطلب صالح باي الازميري - تقلد صالح باي حكم قسنطينة منذ 1771م - (توفيق المدني، 1986، صفحة 133) عن دفع تعويض للممتلكات المنقولة وغير المنقولة للقبيلة التونسية التي هاجرت من ناحية الكاف التونسية الى الأراضي الجزائرية وحسب روسو في حوليات تونس أن الباي حمودة باشا طلب تخفيض التعويض من 4000 سكوين الى 25000 سكوين، ولكن اضطر في الأخير أن يدفع الغرامة المالية لكي لا يدخل في حرب مع الجزائر. (بن خروف، 2017، صفحات 248، 249)

إن هذا الخضوع يدل على أن الباي حمودة باشا يريد الحفاظ على السلم بقدر الامكان خاصة في عهد الداوي محمد بن عثمان باشا والداي حسن باشا، حيث كان يقدم الباي الهدايا الى الحكومة الجزائرية، ويقدم الاحسانات والضرائب لضيوف الجزائر في تونس (بن خروف، 2017، صفحة 259)، وليس هذا فقط بل سار الباي حمودة باشا بعسكره نحو طرابلس لإعانة القرامنلي بعد دعوة الداوي حسن له بالسير نحو طرابلس، وقد انطلقت الحملة من تونس إلى أن وصلوا الى المنشية والتي سقطت يوم الأحد 19 جانفي 1795م وتملكوا حصونها ومات فيها كثير من عسكر تونس، ونتيجة هذا فرليلا في البحر علي برغل، وبهذا تم النصر لحمودة باشا وكان للجزائر دور في مساعدة طرابلس دون تدخلها. (ابن أبي ضياف، 1999، صفحة 25)

ومن هنا بدأ يفكر حمودة باشا بأنه لا بد من اخراج تونس من كونها ايالة تابعة رغم استقلاليتها الى دولة حديثة ذات نفوذ قوي، ومن هنا بدأت العلاقات بين الايالتين تذهب في اتجاه اضطرابي والى القطيعة في بعض الأحيان، ومن مظاهر ذلك عدم دخول الداوي مصطفى بالجزائر في حرب مع حمودة باشا رغم عدم معرفة أن حمودة باي قد دعم ثورة الحاج محمد بن الأحرش (بن خروف، 2017، صفحة 273)، لكن هذه القطيعة لن تدوم طويلا، بل ستنتهي بحرب بين ايلتين خاصة مع أن حمودة باشا أراد ابعاد تونس عن سياسة الجزائر ونفوذها.

2.2. مظاهر الاضطراب السياسي - مشكلة الحدود والجوسسة أنموذجا :-

لقد تعددت مظاهر الصراع بين اياي تونس والجزائر، وذلك لتخلص من تبعية الجزائر، وتجلت أهم مظاهرها في مشكلة الحدود وظاهرة الجوسسة بينهما.

1.2.2 مشكلة الحدود:

يعود ارتسام الحدود الى غاية القرن السابع عشر في عهد حسين باشا وذلك بعد ملحمة الكاف في 1628م، حيث اتفق الجانبان على تخطيط الحدود من الشمال الى الجنوب، ويمتد الحد من البحر إلى رأس جبل الهفا ومنه إلى وادي ميلاق ومنه إلى وادي سيرات (توفيق المدني، 1986، صفحة 37)، وبقيت نفسها الحدود تقريبا عند أواخر القرن الثامن عشر، إلا أن كثيرا ما كانت مشكلة الحدود قائمة وذلك بسبب بعض المواقع كميناء حلق الوادي وطبرقة وغيرها، حيث تمسك حكام الجزائر برأيهم ومطالبتهم لحكام تونس بالاعتراف بتبعية الجزائر، لكن هذا أدى إلى العديد من الصراعات (فيلاي، 1983، صفحة 52)، بحيث كانت القبائل الحدودية عادة ما تخلق هذا الصراع، ففي فترة حكم صالح باي على قسنطينة إلتجأت قبيلة تونسية إلى الجزائر فرارا من دفع الضريبة الى تونس، وهنا يذكر روسو وفاسيات أن صالح باي اتهم حمودة باشا بأنه يسعى دوما لتأليب القبائل الحدودية، وخاصة أنه لحمودة باشا له علاقات وطيدة مع قبائل حدودية جزائرية كالحنانشة حتى أن منهم من كانت تقدم له الهدايا والاحسانات في باردواضافة الى ضغط على القبائل التونسية التي تهاجر نحو الجزائر.

إن الصراع على الحدود عادة ما كان دافعا للحرب ففي سنة 1787م كادت أن تندلع نيران الحرب لولا خضوع حمودة باشا لشروط الجزائر، وذلك لأن مشاكل الداخلية ليست متاحة للدخول في حرب حقيقية يقودها صالح باي ضد محلة متكونة من 600 مقاتل. (بن خروف، 2017، صفحات 250، 251)

ومهما يكن فإن الحدود السياسية دوما ما كانت محل صراع حيث كانت تمتد مع أواخر القرن الثامن عشر من وادي سرات حيث يلتقي بوادي مرجانة ثم البحر والى الجنوب من وادي سرات، نجدها تمتد بين واحتين احدهما تابعة للجزائر وهي وادي سوف والثانية تابعة لولاية تونس وهي بلاد الجريد. (فيلاي، 1983، صفحة 52).

وهذه المنطقة الحدودية كانت توجد بها قبيلتان هما الهمامة التونسية والربايح الجزائرية، وكان هناك شبه اتفاق بين القبيلتين، فالربايح لا يجتازون جبل بوناب، والهمامة لا يسمح لهم بإجتياز البئر الأصلي إلى الشمال من هذه المنطقة، كما توجد إلى الجنوب قبيلة الفراشيش التونسية والنمامشة الجزائرية ويفصل بينهما نهر على طول الحدود وهو وادي هلال الذي يبدأ من جنوب تبسة (فيلاي، 1983، صفحة 53)، ورغم هذه التقسيمات إلا أنها دوما كانت محل صراع بين الإيالتين.

2.2.2 الجوسسة:

لقد عرفت الجوسسة نشاطا بين الإيالتين في نقل المعلومات واثارة الفتن، وقد كان حمودة باشا يخفي جواسيس في مدارتهم وأحيانا سانية المراقبة للتطلع عن أحوال رسلهم واستكشاف سرائر جواسيسهم (المسعودي، 2012، صفحة 413)، أما فيما يتعلق بوكلاء الجزائر بتونس قام حمودة باشا بإهداء جاسوسة لأحدهم وهي في ثوب جارية (الامام، د.ت.، صفحة 413) كانت مهمتها هي اختلاس مراسلات حكومة الجزائر، وكانت تعطيها للغرفة المجاورة إلى جاسوس آخر من أجل نسخها في الحين ومن أجل أن يردها لتعيدها إلى مكانها، ومن هنا كان يطلع حمودة باشا على أسرار الجزائر، وكما أنه لبعض الوكلاء قد كسب ثقتهم فأصبحوا لا يخفون عنه شيء وكأنهم يمثلون تونس لا الجزائر مثل الوكيل الحاج محمد البرادعي. (حلوان، 2015، صفحة 88)

3.2. أهم حروب تونس مع إيالة الجزائر – موقعة سلاطة 1222هـ/1807م أنموذجا :-

عرفت العلاقات السياسية بين تونس والجزائر تذبذبا، ففي البداية عرفت تلبية الباي حمودة باشا لمطالب الجزائريين، وكانت عادة ما تصل إلى حد الخلاف خاصة مع باي قسنطينة الذي يحكم بايلك الشرق في إيالة الجزائر.

لكن لم تصل الحرب إلى رعاها بل كان هناك دائما اتفاق بينهما إلى غاية 1807م، حيث اشتعلت نيران الحرب (Piquet, 1921, p. 306.307) وأهمها موقعة سلاطة، حرب 1808م، الحرب البحرية 1811م...، ونحن في خضم هذه الدراسة اخترنا نموذجا واحدا من أجل تبين وجه الصراع والحروب التي قامت بينهم:

1.3.2. موقعة سلاطة 1222 هـ / 1807 م:

بعد النصر الذي حققته القوات الجزائرية في الدفاع عن قسنطينة شجع الداي أحمد من أجل إعادة الكرة على تونس، ونجد في المقابل أن رجال الدولة التونسية بدورهم كانوا يخططون لنفس الشيء من أجل درأ ذلك الانكسار الذي ألم بحاكمهم (العايب، 2014، صفحة 39)، حتى أن حمودة باشا قرر الذهاب بنفسه على رأس جيش تونسي جديد في حملة ثانية على الجزائر، غير أن مستشاره رجب بونمرّة عارضه في ذلك الأمر وأقنعه بوجوب البقاء في تونس، عندئذ انتخب الباي أقدر رجل في دولته وهو يوسف صاحب الطابع ليكون القائد العام لتلك الحملة (الامام، د.ت.، صفحات 426، 427)، وأشار على أهل البلاد بإطاعته قائلاً لهم: « من أطاعه فقد أطاعني ومن عصاه فقد عصاني، هذه وصيتي إليكم » (شابي، 2014، صفحة 52).

وبالمقابل قام الداي أحمد بجمع فلوله وخرج في 21 ربيع الأول 1222 هـ الموافق ليوم الجمعة 29 ماي 1807 م (مسهل وعبد اللاوي، د.ت.، صفحة 71)، في حين خرج الجيش التونسي بقيادة الوزير يوسف كذلك في نفس اليوم، والتقى الفريقان بمكان سراط (حسن حسني، د.ت.، صفحة 158)، ويقول المؤرخ ابن أبي ضياف أن الجيش التونسي تجاوز وادي سراط والتقى الجمعان بمكان يعرف بالسلطة يوم الاثنين 13 جويلية 1807 م.

اندلعت ساحة الوغى بينيران الحرب وأظلم الجو وتقدمت القوات الجزائرية على التونسية، فلما رأى الوزير الهزيمة، فقال لمن حوله: " ما التدبير ؟ "، فأشاروا عليه بالصبر واستخدموا المدافع ضد القوات الجزائرية، مما جعلهم يفرون ويتركون محلاتهم دون الدفاع عنها (ابن أبي ضياف، 1999، صفحة 48)، ومن هنا بعث صاحب الطابع لحمودة باشا يستبشره بالنصر، وحقق عاد إلى تونس منتصرا. (شابي، 2014، صفحة 52)

لكن لا بد للإشارة هنا في موقعة سلاطة إلى أمر مهم يجعلنا نتحير، وهو رفض دعوة العلماء من أجل تفادي هذه الحرب، فهل هذا يعني أن القطيعة السياسية قد أثرت على التواصل العلمي والثقافي وتحولت هي كذلك إلى نوع من القطيعة، ومن أمثلة على هؤلاء العلماء ما كتبه الفقيه الحنفي محمد بن العنابي للعدول عن الحرب ودفع ما عليه من مستحقات المال لإبعاد الأخوة عن الدم، لكن الباي حمودة باشا رفض هذا الكتاب. (عطية، 2015، صفحة 116)

ومن هنا تتشكل لنا تساؤلات، هل أن حمودة باشا رفضه لمثل هذا الطلب يعني أنه يعطي للاعتبارات السياسية الأهمية القصوى دون الثقافية والعلمية ؟ وهل سيكون لها تأثير واضح وقطع للعلاقات ؟ أم أن هناك استخدام الصلات الثقافية لخدمة أغراض أخرى ؟

إذن فكل هذه التساؤلات نجيب عنها عند الوقوف على الجانب العلمي والثقافي بينهما.

3. ملامح التواصل الثقافي خلال الصراع التونسي الجزائري:

تنوعت ملامح التواصل الثقافي بين الايالتين على الرغم من الصراع والحروب القائمة بينهما ويمكن حصر هذه الملامح في:

1.3. زيارة العلماء من الجزائر الى تونس والعكس:

إن مظاهر الصراع التونسي الجزائري كان بمثابة الحدة التي وصل اليها كل من الايالتين، إلا أن الجانب الثقافي لم ينقطع بينهما، وحتى أن حمودة باشا نفسه كان محبا للعلم، فرغم مصاريف الحرب إلا أنه كان دائما يقدم اعانات للعلماء وطلبة العلم وقد وردت في خزينة وثائق الدولة التونسية قائمة بالرواتب التي كان يدفعها حمودة باشا للعلماء والطلاب (الامام، د.ت.، صفحات 354،355)، وهذا ما زاد العلماء والطلبة تشجيعا في رحلاتهم وتنقلاتهم من تونس الى الجزائر والعكس كذلك حيث تنقل العديد من العلماء والجزائريين الى تونس من أجل نيل حظهم من العلم في هذه الفترة وابتعادا عن السياسة وجوها المكهرب.

ومن الأمثلة عن الزيارات التي عرفتها تونس من طرف علماء الجزائر لدينا علي الجزيري وهو يعود بأصوله الى الجزائر، وله باع في العلم حيث بقي هناك، وتقلد الخطط النبوية كالأعراض وداء الجلد ... (ابن أبي ضياف، 1999، صفحة 37)

لدينا كذلك أبو زكريا يحي بن صالح الأفضلي (1708م - 1808م) المولود في بني يزقن، وهو من علماءها بحيث تعلم على يد علماء جربة الذي أخذ عنهم العلوم العربية والدين (شابي، 2014، صفحة 75)، والعالم أحمد بن سعيد العباسي الملقب بأبو العباس الذي تبحر في علوم البلاغة والبيان وسير الرجال والمنطق والكلام، وكان كثير التردد على تونس رغم المخاطر التي كانت بين تونس وقسنطينة، وقال فيه صاحب كتاب تعريف الخلف برجال السلف: « أخذ عن الشيخ حسين الشريف خطيب جامع الزيتونة وغيره تولى القضاء مرتين وولي النظر على الأوقاف » (نويهض،

(1980، صفحة 214)، وحسب تولي حسين شريف الخطابة فتكون السنة في 1812م أي في أواخر حكم حمودة باشا، وبقي العباسي يؤدي دورا كبيرا في تونس إلا أن وافته المنية في 1836م.

وكذا من أهم زيارة العلماء الجزائريين الى تونس نجد زيارة أبوراس الناصري الى تونس أو كما سماها بزيارة أم البلاد، وقد ناظر العديد من علماءها كالشيخ السيد محمد بن حبوب ذي العلم الغزير والرأي الأثير وكان صاحب عزم وحزم وحتى أن الشيخ أبو الراس الناصري سمع أهل تونس ينادونه بمالك الأصغر (أبوراس الناصري، 1982، صفحات 109، 110)، كما أنه تأثر كثيرا بالشيخ ابراهيم الرياحي هذا الأخير الذي بعثه حمودة باشا سفيراً للمغرب على عهد أبي الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل وذلك بغرض جلب الميرة لهذه الايالة وذلك سنة 1218هـ (ابن أبي ضياف، 1999، صفحة 74)، وحتى أن الباي حمودة باشا لما سمع بقدم الشيخ أبوراس الناصري بعث عليه بالقدوم عنده، وقال عن ذلك أبوراس الناصري: «... ولما رأي فرح بي وأجلسني وأكرمني برد الله ضريحه وأسكنه من الجنان ... ثم سألتني عن أشياء عديدة ... منها عن قسنطينة فأجبت بأن صاحب القاموس قال فيها " هي حصن من حصون افريقية "» (أبوراس الناصري، 1982، صفحة 115)، ومغزى الكلام أنه على الرغم من الصراع والكره للسلطة في الجزائر من طرف حمودة باشا فإن هذا الأخير كان دائما يبقي على احترام العالم والعلم وما تعلمه من أباه والدليل على ما لقيه أبوراس الناصري من حفاوة من قبله.

إن النشاط العلمي لطلبة وعلماء تونس الذين حطت بهم رحالهم العلمية في الجزائر دفعتهم دوافع عديدة بمقاصد مختلفة للنزول بالحضارة الجزائرية والأخذ عن علماءها (العايب، 2014، صفحة 96)، ومن أمثال ذلك الشيخ علي نفطي التونسي الذي أدى دورا في الحركة الدينية بمنطقة جنوب الأوراس بالجزائر إلى أن وافته المنية ودفن بقرية غوفي في نفس المنطقة سنة 1792م، إضافة الى زيارة العلامة ابراهيم الرياحي الفقيه والرحالة والدبلوماسي الذي زار الجزائر صحبة الشيخ الطاهر بن صادق، وقد حظي بترحاب مميز خاصة من قبل أهل وادي سوف وتماسين. (يوسفي، 2020، صفحة 159)

وهذا الترحال بين الايالتين التونسية والجزائرية ينافي تماما الصراع السياسي السلطوي ويعزز مكانة شعبين جمعتهم روح العلم والثقافة ولم تفرقهما الحروب السياسية، وقد عزز رحلات العلماء بين الايالتين الامتداد الصوفي المتشابه بينهما، ففيما يتجلى ذلك ؟

2.3. التواصل الصوفي بين الايالتين خلال حكم الباي حمودة باشا:

بقدر ما كثر انتاج العلماء سيطرت روح التصوف على الحياة العلمية والاجتماعية في الجزائر (سعد الله، 1998، صفحة 111) وانتقلت الى تونس والعكس تماما، ومن بين الطرق الصوفية التي ظهرت في الجزائر وانتقلت الى تونس الطريقة الرحمانية التي تنتسب الى محمد عبد الرحمان القشتولي الجزائري المولود حوالي 1720م، حيث اكتسب الطريقة في الشرق وعاد الى الجزائر في 1769م وأسس زاويته بمسقط رأسه وبقي فيها إلى أن توفي في 1793م وقام بتعيين مصطفى الطرابلسي أحد أتباعه لنشرها في تونس وذلك في زمن والده حمودة باشا ثم في عهده عين أحمد بن علي بوحجر الذي تمكن من بث أصول الطريقة بنجاح في الوسط التونسي وأسس زاوية الكاف عام 1784م (العايب، 2014، صفحات 106، 107)، وهذا دلالة على اهتمام حمودة باشا بالطريقة الرحمانية القادمة أصولها من الجزائر، اضافة الى الطريقة التيجانية التي تنتسب الى مؤسسها سيد أحمد التيجاني، وانتقلت الى تونس بعد تأثر الشيخ ابراهيم الرياحي، حيث أصبح أول من تلقى الطريقة ونشرها بحاضرة تونس وأقام أورادها ووظائفها وكانت زاويته قرب حوانيت عاشور أول زاوية له. (العجيلي، 1992، صفحة 43، 44)

كما كان للطرق الصوفية التي نشأت بتونس دورا مهما في احداث التواصل مع الجزائر، وكان أهمها الطريقة القادرية والتي سميت هكذا نسبة الى مؤسسها الأول عبد القادر الجيلاني، والبارز في تاريخها هو دخولها البلاد التونسية مبكرا وبقيت هكذا الى ظهور الشيخ محمد الامام المنزلي والذي أتم أول زاوية له بمنزل بوزلفة بمعونة حمودة باشا الذي اعتبر من أوائل أتباعها. (العجيلي، 1992، صفحة 39، 40)

وانتشرت هذه الطريقة في الجنوب الشرقي الجزائري بعد أن أصبح أتباعها من الجزائر يكونون زاوية تنقص المشقة عن تنقلهم الى زاوية بوزلفة (شابي، 2014، صفحة 81)، وهذا التواصل هو الذي أثر على الحدود، حيث أصبح سكان الحدود لا يأبهون للحدود السياسية لان الايالتين كانتا مشتركيتين في نمط ثقافي واحد، وقد تفرعت عن القادرية كذلك الطريقة الشاذلية

بتونس والتي انتشر أتباعها في شرق الجزائر كعنابة وخنشلة وسوق أهراس ... (حصام، 2013، صفحة 130) وهذا يؤكد على أن الحرب لم تكن سبيلا لغلق انتشار الطابع الثقافي بين ايتالين.

قد قام حمدان بن عثمان خوجة بتوضيح في كتاب المرأة بأن هذه الحروب والصراعات العسكرية والسياسية لم تؤثر في الجانب الثقافي وحتى الاجتماعي، فيقول في هذا الشأن « تم غزو تونس احدى عشر مرة منذ أن استقل الأتراك وفي جميع هذه الغزوات لم تنتهك ولو مرة واحدة مبادئ الحرب ومبادئ حقوق الانسان ومعنى ذلك أن هذه الحروب لم تكن من أجل التنافس على السلطة، ولقد كان الغالب يدخل تونس منتصرا فيخلع الباي الحاكم وينصب الباي الجديد ثم يقدم معه معاهدات فيها منافع للجزائر واذلال للمغلوبين، ولم يحاول الغالبون ولو مرة الاستولاء على تونس ... ولم يتسببوا أيضا في قلب النظام الاجتماعي، وانما كانوا يغادرون البلاد بعد ابرام المعاهدات مباشرة » (بن عثمان خوجة، 2005، صفحات 75، 76)، يدل كلام حمدان بن عثمان خوجة أن السلطة السياسية الجزائرية في حروبها مع تونس كانت تحترم الشعب وطبقة العلماء على الخصوص ورجال الصوفية والزوايا وكانت تقدم لهم كل التسهيلات، ونفس الشيء كان يقوم به الباي حمودة باشا الحسيني خلال حكمه الذي كان أطول بكثير من عهد أسلافه خاصة من حيث النجاحات التي حققها. (الساعدي وعبد الله، 2018، صفحة 220)

توفي حمودة باشا بعد أن ترك ارثا جديدا لايالة تونس وذاك عن عمر يناهز الثالثة والستين من عمره في 15 سبتمبر 1814م، واختلف المؤرخون حول سبب وفاة الباي فمنهم من أكد أن السبب هو السم، أما المؤرخ ابن أبي ضياف أرجع وفاته الى مرض القلب الذي عان منه طوال مدة حكمه من دون أن يعلم الناس، واعتبر فقدانه في تونس فاجعة لكل تونس . (Marcel, 1851, pp. 201, 202)

وإذا كان حمودة باشا في صراع تام مع السلطة الجزائرية فإن التوافق الثقافي والعلمي والصوفي قد أسهم كثيرا فيه وكان داعما له، وحتى علماء الجزائر كانوا يتنقلون الى جامع الزيتونة والعديد من الحواضر، ويتلقون أفضل الترحاب ونفس الشيء لعلماء تونس ورجال الزوايا، وقد كانت السلطة الجزائرية تبدي لهم كل الاحترام.

خاتمة:

نخلص في مطاف الكلام ومن خلال هذه الدراسة إلى النقاط التالية:

- أن حمودة باشا يعتبر في تونس مهندس النهضة، نهض بها من منطقة شبه قابضة للسلطة العثمانية وللجزائر إلى اية حرة مستقلة في قراراتها وقد ساعدته الظروف التي وصل اليها وهو في سدة الحكم خاصة الاستقرار الداخلي في تونس وحب الشعب له.
- عرفت اية الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر اضطرابا داخليا تمثل في العديد من التمردات التي كانت تواجهها، إضافة إلى الحملات التي كانت تتلاقها من طرف القوى الأوروبية التي زاد التكالب عليها وهذا ما جعل لتونس في بداية حكم حمودة باشا تأخذ نفسا وهدوءا من أجل بناء جيش عصري ومجهز بأسلحة حديثة تمكنه من مواجهة اية الجزائر والانتصار عليها في العديد من المعارك بحيث أصبح الصراع بينهما صراع مد وجزر دون القضاء على أحدهما.
- إن هذا الصراع خلال حكم الباي حمودة باشا (1782م-1814م) دون القضاء على الآخر سببه يعود بالدرجة الأولى إلى دور العلماء وأصحاب الطرق في محاولة اخماد الصراعات دوما حيث تميز التوافق الثقافي بين الايالتين، وهذا التوافق وُجد مرات عديدة من رحم الصراع السياسي لأن حمودة باشا كان محبا للعلماء ومرابطا لهم، وأكد ذلك علماء الجزائر ورجال الصوفية في كتاباتهم عن محبته لهم، ونفس الأمر مدح علماء تونس الجزائر أثناء زياراتهم اليها أمثال الشيخ ابراهيم الرياحي.
- إن حقا الجو المكهرب بين الايالتين قد أثر على زيارة العلماء ولكن هذا لم يمنع من أحداث التواصل الثقافي بينهما، لأنه كانت حواضر وجامعات وزوايا الايالتين تعج بالعلماء وطلبة العلم وهذا خير دليل على مدى الرابطة الثقافية وأواصر الأخوة بين الشعبين والايالتين وقد انعكست هذه الرابطة إلى يومنا هذا، فكثيرا ما يتردد العلماء على جامعة الزيتونة وكذا علماء تونس وذلك من خلال حضور الملتقيات العلمية وزيارته الزوايا وغيرها.

قائمة المصادر والمراجع:

1. Marcel, j. (1851). Histoire de tunis précédée d'un d'escription de cette régence par le docteur louis franke. paris, france : imprimerie de l'institut de france .
2. Piquet, v. (1921). la civilisation de l'afrique du nord berberes , arabes et turcs laibairie armand collin. paris, france .

3. أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830، الجزء 02. بيروت، لبنان: دار الغرب الاسلامي.
4. أحمد ابن أبي ضياف. (1999). اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان (المجلد 04، الجزء 07). تونس: دار العربية للكتاب.
5. أحمد ابن أبي ضياف. (1999). اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، المجلد الثاني، الجزء الثالث. تونس: الدار العربية للكتاب.
6. أحمد توفيق المدني. (1986). محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
7. التليبي العجيلي. (1992). الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية (1881-1939)، المجلد 02. تونس: منشورات كلية الآداب بمنوبة.
8. السايح فيلاي. (1983). العلاقات السياسية الجزائرية التونسية 1800-1830، بحث لتيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث. قسنطينة، معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر.
9. الطيب يوسف. (2020). العلاقات العلمية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني، رسائل أئمة التيجانية الى أعيان الجنوب التونسي أنموذجا، أطروحة دكتوراه. سيدي بلعباس، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي ليايس، الجزائر.
10. باجي المسعودي. (2012). الخلاصة النقية في أمراء افريقية. القاهرة، مصر: دار الآفاق العربية.
11. بشرى ناصر هاشم الساعدي، وميساء لؤي عبد الله. (ديسمبر 2018). حمودة باشا ودوره الاصلاح في تونس 1782-1814. مجلة الآداب، 02 (127)، الصفحات 213-225.
12. حمدان بن عثمان خوجة. (2005). المرأة. الجزائر: منشورات ANEP.
13. رشاد الامام. (د.ت.ن). سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814، رسالة دكتوراه. بيروت، الجامعة الأمريكية، لبنان.
14. سيار الجميل. (1997). تكوين العرب الحديث. عمان، الأردن: دار الشروق.
15. صورية حصام. (2013). العلاقات بين اياالي الجزائر وتونس خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير. وهران، كلية العلوم الانسانية والحضارة الاسلامية، جامعة وهران، الجزائر.
16. عادل نويهض. (1980). معجم أعلام الجزائر من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر. بيروت، لبنان: مؤسسة نويهض الثقافية.
17. عبد الوهاب حسن حسني. (د.ت.ن). خلاصة تاريخ تونس. تونس: دار الكتب العربية الشرقية.
18. عمار بن خروف. (2017). العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في القرن 18 م/12 هـ. الجزائر: دار الأمل للطباعة والنشر.
19. كوثر العايب. (2014). العلاقات الجزائرية التونسية خلال عهد الدايات (1711-1830)، رسالة ماجستير. الوادي، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة الوادي، الجزائر.
20. محمد أبو راس الناصري. (1982). فتح الإله ومنته في التحديث بفضل ربي ونعمته. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
21. محمد حلوان. (2015). العلاقات بين ايالة الجزائر واياالي تونس وليبيا 1750، 1830، رسالة ماجستير. سيدي بلعباس، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي ليايس، الجزائر.
22. محمد عطية. (2015). الصراع بين الايالتين الجزائرية والتونسية من خلال المصادر المحلية الجزائرية و التونسية 1587-1830، رسالة ماجستير. سيدي بلعباس، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجيلالي ليايس، الجزائر.
23. مسهل أمال، عبد اللاوي فاطمة، (د.ت.ن). (حمودة باشا الحسيني ودوره في بعث الوطنية التونسية 1782م-1814م)، مذكرة ماستر. المسيلة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف، الجزائر.
24. نعيمة شابي. (2014). العلاقات الجزائرية التونسية من خلال كتاب اتحاف أهل الزمان لابن أبي ضياف (1198هـ-1282هـ/1782م-1872)، مذكرة ماستر. الوادي، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة الوادي، الجزائر.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال وفق نظام توثيق الجمعية الأمريكية لعلم النفس APA الإصدار السابع (7):

بن أحمد عيسى جمال، مكحلي محمد. (2021). الصراع السياسي بين تونس والجزائر خلال حكم حمودة باشا (1782-1814) وملاحج التواصل الثقافي بينهما. آفاق فكرية، سيدي بلعباس (الجزائر)، 9 (3)، 412-425؛ رابط

المجلة <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/396>